العقيدة العسكرية والفتوحات
سمة بارزة في حضارة وادي الرافدين

د. أحمد مالك الفتيان
كلية الآداب / جامعة بغداد

عندما نتحدث عن واجب والعقيدة العسكرية لبلاد وادي الرافدين يقودنا الحديث الى اقدم نظام حكم عرفه العالم القديم . وعليه فقد شهد القسم الجنوبي من بلاد وادي الرافدين نشوء وتطور أولى الأنظمة السياسية وأدى دويلات المدن وهذه حقيقة ثابتة وتاريخية لا يختلف عليها الباحثون المعنيون في دراسة التاريخ القديم . ففي بداية الألف الثالث قبل الميلاد شهدت بلاد وادي الرافدين ولادة أول جيش يتبع المؤسسة الحكومية يتدرب فيه سكان دول المدن على فنون الحرب واستخدام السلاح .

لقد أمدتنا النصوص الكتابية في تلك الفترة بشواهد كثيرة تؤكد وجود الجيش ومن بين تلك الشواهد الواضحة للعيان هي تلك الحروب التي نشبت بين سلالة كيش أبان حكم حاكمها أجا وبين سلالة الوركاء في زمن حكم حاكمها كلكامش [١] .ومهما يكن من شيء فان الواجب الأساسي من هذا البحث هو يعني حماية شعب بلاد وادي الرافدين للدفاع عن مكاسبه الحضارية وحب الوطن من الاعتداءات الرجعية والمحافظة على ارض واستقلال البلاد [٢] .

وعليه فلو تصفحنا كتب التاريخ لوجدنا ان بعض الحروب التي شنها جيش بلاد وادي الرافدين كان أمرا محتوما ولا مفر منه فقد كانت شعوب البرابرة يحيطون بتخوم البلاد ويتحينون الفرص للانقضاض على مدن بلاد وادي الرافدين وكمثال على ذلك ما شاهدناه في هجوم الكونتين والكيشن والكمريين والمبيدين والعيداين وغيرهم من الأقوام الغير متحضرة .

هذا بالإضافة الى ان العقيدة العسكرية في جيش بلاد وادي الرافدين كانت قيمة على الوضع الداخلي ومسؤولة مسؤولية مباشرة على تامين سيادة النظام والقانون لان الجيش هو محور وركيزة النظام السياسي وخصوصا بعد نضوج

النظام الإداري وتطوره الى نظام إمبراطوري وهذا تحصيل حاصل لما وصلت اليه بلاد وادي الرافدين من رقي وازدهار حضاري إضافة الى ذلك كثرة التحديات التي جابهتها الدولة الرافدينية لأنها السبيل للحفاظ على الدولة وعلى المنجزات الحضارية الا بوجود قوة ضاربة وثابتة ومتطورة تلوذ عن الوطن وتدافع عنه اطماع الطامعين[٣] . ومن هذا المنطلق كان اهتمام سكان وادي الرافدين منصباً على تنظيم وتقوية الجيش بكل الوسائل المتاحة فاستنبطوا الدروس واكتسبوا الخبرات من ذلك الموروث الحضاري .

وهذا ما تشهد به المستندات والمنحوتات الجدارية والاعمال الفنية اضافة الى ما سجلته لنا النصوص الكتابية عن هذا الموضوع[٤]. ومن هذا المنطلق ومن خلال التطورات السياسية والاقتصادية عن العهد الامبراطوري الاشوري العهد الذهبي للعقيدة العسكرية والفتوحات في بلاد وادي الرافدين سواء كان ذلك على صعيد التنظيم ام على صعيد التعبئة والتسليح وهذا ياتي بدون شك من الاعتماد على الجيش النظامي[٥] الدائم الذي حل محل الجيش المؤقت الذي كان يستدعى أفراده خلال الازمات ويسرح حين انتهاء الحاجة .

وعليه فقد اصبح هذا الجيش ذروته في التقدم والتطور لانه يمثل الركيزة الاساسية في قوة الدولة لانه القوة الضاربة فنظراً لما وصلت اليه المعدات العسكرية من تطور وكذلك الشجاعة الفائقة التي اتصف بها المقاتل العراقي القديم يضاف الى ذلك الايمان العميق بقدرة الالهة على احراز النصر هذا الى جانب الروح العسكرية العالية التي امتاز بها سكان وادي الرافدين نتيجة مجاورتهم الاقوام المعادية سواء اكان في المناطق الجبلية المجاورة او في سواحل البحار والاهوار حيث كانت التحديات[٦] خطيرة بالنسبة لسكان وادي الرافدين وخير مثال نشوفه لتعزيز ما ذهبنا اليه هو ما تركته لنا الشواهد الكتابية والمنحوتات الجدارية[٧] وغيرها من الاثار هي في الحقيقة وثائق كافية تبين لنا مدى تطور العقيدة العسكرية العراقية القديمة .

ويجب علينا ان نؤكد الحقيقة امكانية التي ادركها سكان بلاد وادي الرافدين منذ بدايات العصور التاريخية هي انهم امام قوى خطيرة لا يمكن اتقاء

شرها والحفاظ على بلادهم الا بوجود جيش منظم ومسلح يحقق لبلادهم الطمأنينة والعيش بسلام وكذلك يضع حدا لكل التجاوزات والاعتداءات والاطماع وعدم فسح المجال لهم للنيل من منجزات ومكتسبات وحضارة وادي الرافدين .

ان هذه المسألة اصبحت قاعدة اساسية للعقيدة العسكرية لان سكان بلاد وادي الرافدين كانوا يدافعون بكل همة وعزم ضد اعدائهم من عيداييين وكوتيين ومبتائين واورانين وميديين .... الخ ان هذه التحديات تسبب مصدر قلق دائم سكان بلاد وادي الرافدين بل وقضى تحديا لهم ، لذلك فقد تعلم العراقيون القدماء بفضل سلسلة التجارب التي مروا بها والتي قاسوا منها ، ان محاولة توجيه ضربة مباشرة الى اعدائهم الطامعين سوف لن يكتب لها النجاح الا بوجود جيش منظم او مدرب بصنع سلاحه بيده ، هذا الى جانب وجود وحدات عسكرية يوجهها حكام الاقاليم التابعة للدولة كجيش احتياطي يكون بمثابة دفاع أولي عن حدود الدولة[٨] .

ان هذا يقودا الى ان هناك حقيقة اتى بها حكام بلاد وادي الرافدين وخصوصاً بعد بناء دولتهم والوثوب بها نحو الامبراطورية هي انه يجب عليهم ان يستبدلوا جيش السخرة المتالف من العبيد والفلاحين الذين يهيأهم حكام المقاطعات لالحاقهم بخدمة ملوكهم خلال الحملات الحربية الى جيش دائم يتكون من عدة فرق منظمة ومنضبطة تؤدي بدون شك الى الغرض الذي تخدم مصلحة الدولة ومكتسباتها الحضارية .

وكنتيجة نفقة الدولة فقد اصبحت الحاجة الى وجود قوة عسكرية مرتبة ومنظمة تنظيما تعبوياً بحيث يمكن حصرها بالاقسام التالية :

١. المقربون من الملك وحمايته (الحرس الملكي) .
٢. الجيش الدائم للدولة والذي يتواجد في معسكرات خاصة في العاصمة والمدن الكبيرة .
٣. القطعات العسكرية المرابطة في حدود الدولة (قوات الحدود) .
٤. الجيش العام والذي يشمل كل فرد قادر على حمل السلاح[٩] .

الى جانب هذه القطعات او التشكيلات الاساسية والتي هي عبر ذاتها تعتبر العمود الفقري للدولة ، كان هناك ايضا تشكيلات خاصة لها دورها

الرئيسي في قوة الدولة الرافدينية ونعني هنا قوات الصولة او الصاعقة هذا الى جانب صفوف اخرى لها دورها الاساسي في حماية ممتلكات الدولة كسلاح الهندسة والميرة والنقل(١٠) .

ان مثل هذه العقيدة العسكرية تكون بدون شك عامل رئيسي في تقوية الدولة بصورة عامة وكذلك تقوية مركز الملك باعتباره القائد العام لجميع القوات العسكرية وهذا مفهوم عراقي قديم ساد منذ عصر فجر السلالات وحتى نهاية الادوار الحضارية في بلاد وادي الرافدين ، وكمسألة ذات اهمية في هذا الموضوع هو انه مهما يكن في سعة القوة العسكرية وتشعب صفوفها فان استخدامها المؤثر يعتمد على ركنين اساسيين هما الاول التنظيم(١١) والثاني التدريب وعليه فان الجيش في وادي الرافدين لم يكن كما يتصوره البعض عبارة عن فلاحين وعبيد ومرتزقة ، بل جيشا منظما مدربا بقوة مدخرة فيه من الاختصاصات والوحدات والصنوف التي تؤدي واجباتها على أسس مدروسة وثابتة .

لذلك كان حرص سكان بلاد وادي الرافدين شديدا في الدفاع عن مناطق نفوذهم وضمان أمنها واستقرارها ، هذا بالإضافة إلى تثبيت مكان الدولة لان هذه القوة الرادعة هي المعول الرئيسي التي تقف بوجه الأطماع الأجنبية وإذا ما حاولوا النيل من مكتسبات الدولة العراقية وهذا بدون شك يتطلب من الدولة في بلاد وادي الرافدين أن تعد الجنود أعدادا يستند على قاعدة متينة وذات تصور بعيد ولا يستطيع تحقيق ذلك سوى الجنود المدربون(١٢) والمؤهلون لهذا الغرض ، وهذا بطبيعة الحال ما كانت عليه معظم الجيوش في كل الأدوار الخارجية في بلاد وادي الرافدين .

والمصادر الكتابية تخبرنا عن وحدات متخصصة لحقت بالجيش وهذه الوحدات هي وحدات تقنية تشمل صنوف الهندسة والتموين والنقل والتي تختص بالعرضات والعجلات وآلات الحصار وأكباشها وكانت تجر تلك المركبات والخيول والثيران وهذه العربات لعبت دورا رئيسيا

واستخدمت استخداماً سوقياً وتعبويا في المعارك الحربية وتشير النصوص الكتابية إلى تبادل الرسائل بين القصر الملكي وقيادة الجيش الذي يؤدي دورة في الجبهة فسعاة البريد والرسل الذين يحملون الأخبار كانوا في حركة دائمة ونشيطة بين العاصمة وجبهات القتال (١٣) .

وتتضح سمات العقيدة العسكرية في حادثة جرت في عهد الملك أشور بانيبال عند حروبه مع المانين في شمال غرب إيران وبالتحديد جنوب بحيرة اورميا عند حدودنا الشمالية الشرقية والذين بدؤوا بمحاولاتهم للتمرد على الدولة الآشورية بمساعدة الميديين وهذا كان له اثر واضح على سلامة الدولة وأمنها على المستويين السياسي والاقتصادي حيث انه من المعروف أن هذه المنطقة ذات أهمية من حيث كونها المورد الأول للخيول والتي تحتاجها الآلة العسكرية كما أنها بنفس الوقت ذات موقع استراتيجي لوجود الكثير من القلاع الآشورية التي تقف حائلاً دون تقدم او تحرر الأقوام الهمجية المتمثلة بالاشكوريين والكمربين وعلى هذا الأساس وفي منطلق الحرص على سلامة الدولة قرر أشور بانيبال أن تضرب القوات الآشورية المتواجدة على الحدود نقاط التحرر في مقاطعة الماناي (١٤) .

وبالفعل كانت النتيجة أن قتل ملك المانيين واستقرت الأمور لصالح الدولة الآشورية وهناك مجال اخر تتميز به العقيدة العسكرية هو ما نسمية اليوم بأساليب الحرب النفسية باعتبارها جزء من سياسة الفتوحات والتي بلغت ذروتها خلال الفترة السرجونية والتي ساهمت مساهمة فعالة في إشاعة الآمن والاستقرار والسلام في أرجاء الأرض القومية ، وهذا يعني إن القيادة السياسية تستحضر للمعركة كل ما يحقق لها النصر من استعداد وتحضير وتخطيط وتجهيز واعداد لان استعراض هذه القوة والمناورة بها وما تبثه من دعاية وإشاعة لان الأيمان بالنصر مؤكد لانه من صنع الإله التي من اجلها جيشت الجيوش في ارض الأعداء .

أن مثل هذه الأفكار قد لعبت دورا مهما في تعزيز النصر ، فالانتصارات التي حققها سكان وادي الرافدين قد كسبت بالإضافة إلى المكاسب الأخرى جانب أعلامي له أهميته الكبرى في التأثير على معنويات القوى والمتآمرة وزعزعت الثقة بنفسها واضعاف الروح المعنوية بين الأعداء بحيث تكون الحصيلة النهائية هي النصر لبلاد وادي الرافدين .

أهم المراجع

(١) فاضل عبد الواحد ، من العهد السومري الى التوراة ، بغداد ، ١٩٨٩ .

فاضل عبد الواحد ، العراق في التاريخ .

فاضل عبد الواحد ، فاروق الراوي ، دراسة في نقاط حول الفكر العسكري العراقي القديم بغداد ، ١٩٨٧.

فاروق الراوي ، التقنية واساليب القتال ن موسوعة الجيش والسلاح ، جـ ٢ ، ط ١٩٨٧ .

فاروق الراوي ، دراسات في التطبع والفكر العسكري ، بغداد ، ١٩٨٨ .

(٢) Saqqs , H . W. F. EVERY DAY LIFE IN BABYLONIA AND ASSYRIA , LONDON ١٩٦٥

Saqqs , ASSYRIA warfare period Iraq ١٩٦٣٢٥, in the sargoind

(٣)شاكر ، عظمة بابل ، شرح عامر سليمان الوصول ١٩٧٩

(٤) اندريه بارو ، بلاد اشور ، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه ، بغداد ١٩٨٠ .

(٥) عامر سليمان ، الجيش والسلاح في العصر الاشوري ، موسوعة الجيش والسلاح بغداد ، ط١٩٨٧ .

(٦) يوسف خلف ، الجيش والسلاح في العصر الاشوري الحديث ، بغداد ١٩٧٧ .

(٧) وليد الجادر ، الالقاب والازياء العسكرية ، موسوعة الجيش والسلاح ،جـــ ٢ ، بغداد ١٩٨٧ .

الهوامش

(١)مزيدا من التفاصيل ، انظر د. فاضل عبد الواحد من الواح سومرية التوراة ١٩٨٩ كذلك فاضل عبد الواحد العراق في التاريخ ١٩٨٤ .

(٢) مزيدا لامن التفاصيل : انظر موسوعة الجيش والسلاح جـــ ١ ، جـــ ٢ ، بغداد ١٩٨٧ .

(٣) فاروق ناصر التعبئة واساليب القتال في الجيش الاشوري (موسوعة الجيش والسلاح جـــ ٢ بغداد ١٩٨٧ ص١٠ .

(٤) فاضل بعد الواحد : من الواح سومر الى التوراة بغداد ١٩٨٩ ، ص ٨٤-٨٥.

(٥) Saqqs , H.W.F. , EvE RYDAY IFE IN BABY LONEA and ASSYRIA , London , ١٩٦٥ PP . ١١٤ – ١٢٤ .

(٦) فاضل عبد الواحد : مصدر سابق ١٩٨٩ ص ١١٠ – ١١١ .

(٧) مزيدا من التفاصيل انظر : اندريه بارو ، بلاد آشور ، ترجمة عيسى سلمان وسليمة النركيلي بغداد ١٩٦٠ كذلك فاروق الراوي . مصدر سابق ١٩٨٧

(٨)Saqqs " Assyrian warfare in the sargoind period " . Iraq ٢٥ . ١٩٦٣ . p . ٤٥

(٩) هادي ساكن ، عظمة بابل ، الراجدي وسبحان ، الموصل ، ١٩٧٩ ، ص ٢٩٩ .

(١٠) البصير يوسف خلف الجيش والسلاح في العصر الاشوري الحديث ، بغداد ١٩٧٧ .

(١١) حول الموضوع انظر الدكتور فاضل عبد الواحد وفاروق الراوي ، دراسة مركبة في نقاط الفكر العسكري العراقي القديم ، مجلة الثورة ، العدد ٣٧ بقرار ١٩٨٧ /٥/١٦ .

(١٢)انظر وليد الجادر ، الالقاب والازياء العسكري الاشورية ، موسوعة الجيش الدائم جـ ٢ ، بغداد ١٩٨٧ . ص ٩٤ ــ ٩٩ .

– فاروق الراوي ، دراسات في الفكر العسكري ، مقالة منشورة ١٩٨٨ .

(١٣) فاروق الراوي ، موسوعة الجيش والسلاح بغداد ١٩٨٧ .

(١٤) فاضل عبد الواحد ، مصدر سابق ، ١٩٨٧ ، ص٦ ، واخر مصدر سابق ١٩٧٩ ، ص ١٤٦ – ١٥٦ .